ظهور الموحدين
وامتداد سلطانهم الى الاندلس

يقول مؤلف « الحلل الموشية [1] في ذكر الاخبار المراكشية » عند ترجمته الامير أبا الحسن علي بن يوسف بن تاشفين انه أجاز الى الاندلس الجواز الرابع في سنة 515 وذلك لثورة قامت في قرطبة ضد واليها الامير يحيى بن رواد ومن معه من المرابطين . وبينما هو بالاندلس اذ بلغه ظهور المهدي بالسوس الاقصى فعاد الى العدوة.

واذاً فقد جد خطر يهدد ملك المرابطين ، يهدده لا في العدوة الافريقية فحسب ولكن فيها وفي الاندلس. وهذا

(1) صفحة 70 ـ 71 من الكتاب، والمؤلف مجهول. وقد اعتنى بنشره وتصحيحه : ى . س علوش مدير المباحث الادبية والتاريخية بمعهد العلوم. والمحافظ على القسم العربي من المكتبة العامة برباط الفتح سنة 1936. وكان هذا الكتاب قد نشر من قبل في تونس . وطبعة الرباط هي الحلقة السادسة من سلسلة المخطوطات العربية التي يشرف على نشرها معهد الدراسات العليا المراكشية: *L' Institut des Hautes Etudes Marocaines*

الخطر جاء من المسلمين لامن الروم وجاء من ابن تومرت - الملقب بعد بالمهدي - المؤسس لدولة الموحدين . وكان له قطعا أثره فى توجيه ملوك المرابطين همهم الدفاع عن حصنهم الاول ومقر سلطانهم فى بلاد مراكش .

ويتأهب أمير المسلمين على بن يوسف لمقاومة هذا الخطر والقضاء عليه ، ويجهز العسكر ويقدم عليه أخاه الامير أبا طاهر تميما ، ويبعث به لمحاربة الموحدين فينهزم جند المرابطين[1] ويرجع .

نعم اضطربت الامور فى العدوة الافريقية على أمير المسلمين علي بن يوسف منذ ظهور المهدي ، وخلفه الامير عبد المؤمن ابن علي. واستمر الاضطراب الى أن مات أمير المسلمين فى رجب سنة 537 هـ . (الموافق 1143 م) وفى عهد خلفه وابنه تاشفين بن علي بن تاشفين .

وبسبب هذا الاضطراب وهذه الفتنة ، اتصلت الحروب ، وغلت الاسعار ، وعم الجدب ، وقلت المجابى ، وكثر على

---

(1) صفحة 209 من كتاب « الحلل الموشية »

أهل الاسلام المحن بالعدوتين، ووجه كثير من حماة الاندلس الى العدوة، ونقل اليها كثيرمن أسلحتها وعددها، فكان ذلك من أعظم فساد حل بالاندلس، واختلال أمرها عليهم، والح النصارى بالضرب على جهات بلاد الاندلس حين علموا عجز الامارة بالمغرب عن الدفاع، لما هم فيه من الفتن، حتى تغلبوا على كثير من بلادها [1]. »

وانشغل أمير المسلمين تاشفين بن علي بحروبه مع الموحدين، وانصرف ملوك الطوائف الى التكالب فيما بينهم فضعف امرهم، واشتد ساعد الروم عليهم. ولم يتمكن امير المسلمين بالمغرب من الجواز الى الاندلس كما كان يفعل سلفه عندما يهاجمها الروم أو يخرج على أمرائها من المرابطين ملوك الطوائف.

وكان من اعظم ما تأيد به عبد المؤمن على المرابطين قيام أهل الاندلس عليهم، لانهم اخلوها من حماتها واسلحتها. والفساد الاكبر على المرابطين نسخ أمر بأمر غيره، فكانوا يكتبون اليوم شيئا وغدا غيره. فيسخر جنودهم ورعاياهم [2]

(1) صفحة 98-99 من «الحلل الموشية» (2) صفحة 108 من «الحلل الموشية»

منهم.

ومات امير المسلمين تاشفين اثناء مطاردة الموحدين له بوهران ، قتل مترديا من الحصن فى [1] رمضان سنة 539 هـ (1145 م)

ثم بويع بمراكش ابنه ابرهيم والفوه ضعيفا عاجزا فخلع وبويع عمه اسحاق بن على بن يوسف بن تاشفين . وهو آخر أمراء المرابطين ، اذ قتل فى سنة 541 بعد حصار مدينة مراكش ، وبموته آل الامر الى عبد المؤمن خليفة الموحدين .

وقد اشرنا فى الصفحات الماضية الى ما كان من فرار عبد الله بن محمد بن غانية والى بلنسية فى سنة 539هـ ، أى فى الوقت الذى كانت تطارد فيه جيوش الموحدين عساكر المرابطين ، والذى كان المرابطون منصرفين فيه الى شئون العدوة الافريقية. وكان ابن غانية هذا آخر ولاة المرابطين [2] فى بلنسية . . . وانتقلت ولاية بلنسية بعده الى القاضي ابى مروان بن عبد العزيز ، ثم

(1) رواية ابن خلدون انه «هلك يقال سنة 541هـ» (2) هذا ما عدا دولتهم فى الجزائر الشرقية التى دامت اثناء عهد الموحدين واستمرت منها جزيرة منورقة الى وفاة ابى عثمان سعيد بن حكم القرشى .

عبد الله بن عياض منيبا عنه أبا عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش ثم ابا محمد بن مردنيش وبعده أخوه أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش .

ولما تم لعبد المؤمن ملك المغرب، شرع فى أعمال الحركة للاستيلاء على افريقية وعلى الاندلس . فقسم عساكره الى ثلاثة اقسام، وجه واحدا منها الى الاندلس بقيادة ابنه [1] السيد أبى حفص . وقد كانت وصلته بيعة من بعض المواضع بجزيرة الاندلس . واول بيعة وصلته ، واول وفد وفد عليه [2] من اهل أشبيلية، ولذلك اعتنوا بها فى مدتهم وصيروها حاضرتهم بالاندلس .

وولى امير المؤمنين عبد المؤمن على غرناطة ابنه السيد ابا سعيد عثمان . وفى سنة 555 هـ أجاز هو الى الاندلس واتته وفودها من كل جهة مبايعة، واحتفل به الشعراء [3] والخطباء، ومات سنة 558 هـ.

---

(1) ص 123 من الحلل الموشية. وتوجه هو بالقسمين الاخرين الى افريقية لضمها لملكه. (2) صفحة 122 من «الحلل الموشية» (3) صفحة 130 من «الحلل الموشية»

وتولى بعده ابنه ابو يعقوب يوسف، فاجاز الى الاندلس مرتين ، كانت اولاهما سنة 572 وثانيتهما سنة 580 هـ

وكان ابن مردنيش ـ كما ذكرنا ـ قد اتسع سلطانه وآلت اليه امارة مرسية وبلينسية وشاطبة، ودانية، وجيان، وبسطة، ووادى آش، وقرمونة ونازل قرطبة واشبيلية. وكاد يستولى على جميع الاندلس. وولى صهره ابرهيم[1] بن همشك مدينة جيان .

وفى سنة 556هـ قصد ابرهيم بن همشك هذا غرناطة فاستولى عليها ، وامتنعت عليه قصبتها التى اعتصم بها الموحدون بعد هزيمة جيشهم . ولما اتصل الخبر بالخليفة بعث بجيش يقوده السيد ابو يعقوب انضم الى جيش السيد ابى سعيد وتقدم الجيشان نحو غرناطة . فاستصرخ ابن همشك بصهره ابى عبد

---

(1) هو ابراهيم بن احمد بن مفرج بن همشك. ومعنى همشك مقطوع الاذن. وجده نصرانى اسلم على يد أحد ملوك بنى هود بسرقسطة خدم مع النصارى وصاهر ابن مردنيش وساواه . وكان جبارا قاسيا عظيم الجراة وحارب الموحدين فى غرناطة. وساء ما بينه وبين ابن مردنيش بسبب زوجه بنت ابراهيم هذا ثم خدم الموحدين ولاذ بهم واستجار . فجاز البحر وقدم على الخليفة عام 565 فاكرم قدومه ، واقطعه املاكا فى مكناسة وبقى بها الى ان مات (انظر كتاب الاحاطة الجزء الاول صفحة 159، وكذلك كتاب اعمال الاعلام صفحة 303).

الله محمد بن سعد بن مردنيش، فخرج بنفسه فى العسكر الكثير من اهل الشرق والنصارى، ووصل الى غرناطة. فهزم هو وصهره واتصلت هزيمته، وظهر عليه الموحدون واستخلصوا معظم ما بيده، واوقعوا به الوقائع العظيمة، وحصر بمدينة مرسية الى أن مات اثناء الحصار فى رجب سنة 567 هـ. وكانت بلنسية فى ذلك الوقت تحت امارة اخيه ابى الحجاج يوسف كما ذكرنا.

وفى كتاب « الاستقصا » أنه لما مات محمد بن مردنيش جاء أولاده واخوته الى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو باشبيلية، فسلموا اليه جميع بلاد شرق الاندلس التي كانت لابيهم فأحسن اليهم أمير المؤمنين، وتزوج أختهم، وأصبحوا عنده [1] فى أعز منزلة.

---

(1) لم ينقض نفوذ بنى مردنيش ويزل نهائيا، بل كان منهم امراء على البلاد وقواد للاساطيل تحت حكم الموحدين، من ذلك ان الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على الاسطول وأغزاه الاشبونة. « ذكروا أن الامير محمد بن سعد لما يئس من نفسه، وعلم بتصيير ملكه الى الموحدين أشهد على نفسه بايصاء يوسف بن عبد المؤمن عدوه على ولده وأهله، ورغب منه فى قبول ذلك. وجلب اليه ولده بعد موته، =

وبذلك شملت سيادة الموحدين شرق الاندلس بما فى ذلك بلنسية، وصار ابو الحجاج يوسف بن مردنيش واليا للموحدين.

ويقول ابن خلدون انه لما هلك محمد بن مردنيش خرج ابنه هلال فى صحبة السيد ابى حفص الذى كان محاصراً مرسية. فارسله الى الخليفة فى اشبيلية وصهر له فى ابنته. وولى عمه يوسف [1] على بلنسية. فهذا نص صريح على ان أبا الحجاج يوسف بن مردنيش قد استمر واليا على بلنسية بعد انتصار الموحدين.

وتولى بعد الخليفة يوسف ابنه الخليفة يعقوب المنصور، وجاز الى الاندلس مرتين افتتح فى اولهما شلب ودوخ بلاد الشرك. وكانت الثانية سنة 594هـ. وفيها حدثت وقيعة [2] الارك

= فرق لهذا القصد الامير أبو يعقوب واهتز لرعى هذه الوسيلة فتزوج ابنة ابى عبد الله بن سعد وخلط أهله بنفسه وأورثهم ذلك ملك البلاد الشرقية زمنا غير يسير. وكان اعراسه ببنت ابن سعد سنة 570 وولع بها، واتفق لقومها من البخت بسببها ما لم يتفق لثائر ولا مخالف ملك. فانفذ تقديم الامير أبى الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على بلنسية، وجهاتها، وقدم غانم بن محمد بن اخيه على اساطيل العدوة بسبتة، وأمسك هلالا بحضرته اثير الرتبة لديه » (انظر ص 311 ـ 312 من اعمال الاعلام)

(1) صفحة 240 من الجزء السادس من تاريخه (2) تسمى موقعة الارك أيضا. ويقال ان خسارة الروم بها كانت ثلاثين ألف رجل.

التى هزم فيها الروم هزيمة منكرة .

ولما دنت وفاته فى سنة 595 جمع بنيه وكبار الموحدين ووصاهم بوصايا منها: « أيها الناس . أوصيكم بتقوى الله ، واوصيكم بالايتام واليتيمة » فقال له الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص . « وما الايتام واليتيمة ؟ » فقال: « الايتام أهل جزيرة الاندلس . وهى اليتيمة [1] ... » وكانت وفاته فى ربيع الاول أى فى الشهر الذى ولد فيه ابن الابار تقريبا. فكأن ابن الابار ولد فى الوقت الذى كان خلفاء المسلمين من المغرب قد وصلو الى درجة من الخوف على الاندلس والاندلسيين ، فاطلقو عليها وصف اليتيمة، وعليهم وصف الايتام . وظاهر ان سبب هذا الوصف فقدان المناعة والقوة الحامية فى داخل البلاد نفسها وحاجتها الى من يتبناها ويحكمها من الخارج .

وخلفه ابنه محمد الناصر لدين الله ، واجاز الى الاندلس وأقام بها عامين فى سنة 607، وافتتح فيها معقل شلبيرة . وفى صفر سنة 609 كانت عليه وعلى المسلمين الهزيمة العظمى التى

---

(1) صفحة 133 من «الحلل الموشية»

فنى فيها اهل المغرب والاندلس، والشهيرة بكائنة العقاب. وفى اثرها عاد قافلا الى حضرة مراكش، واغتم من اجلها غما كبيراً ، أدى الى وفاته فى شعبان سنة 610

تولى بعده ابنه يوسف المستنصر بالله ولم تكن فى ولايته حركة تذكر ، ولا غزوة تشهر. ومدته آخر ضخامة الدولة الموحدية ومات فى ذى الحجة سنة 620 . وخلفه ابو مالك عبد الواحد بن يوسف، ولكنه تخلى بعد ثمانية اشهر، فقام بالخلافة بعده ابو محمد عبد الله العادل بن يعقوب المنصور . وقتل خنقا فى سنة 624 . ومن مدة هذين الخليفتين وكيفية موت ثانيهما ندرك مقدار ما آلت اليه حال المغرب الداخلية من ارتباك ، وما صارت اليه الاندلس من اهمال فى الدفاع عنها .

---

(1) صفحة 154 من الحلل الموشية. وهذه الوقعة تسمى عند الفرنجة *Las Navas de Tolosa* ويتحدث ابن الخطيب (صفحة 382 من اعمال الاعلام) عن دون الفونس الذى تولى سنة 1198 م وحكم ثلاثا وخمسين سنة فيقول: وهذا الصبى هو الذى جرت عليه الهزيمة المعروفة بالارك على يد يعقوب بن يوسف سنة 1233م. ثم دالت له الايام فكانت له على الناصر ابن المنصور هزيمة العقاب التى لم تستقل العثرة بعدها بالاندلس . وذلك ثامن عشر من يليه سنة 1253م.

وتولى الخلافة بعده المأمون ابو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور. وكان عالما اديبا فصيحا ذا رأى وحزم، الا ان دولته كانت مزاحمة بابى زكريا يحيى بن الناصر سلطان افريقية، فلم يتات له معه تمهيد البتة. وتوفى فى ذى الحجة سنة 629 وهو الذى امر بزوال اسم المهدي من السكك وغيرها. واذن للنصارى القادمين من الاندلس ببناء كنيسة فى مراكش، واستولى ابن هود فى عهده [1] على الاندلس، وأخرج منها سائر الموحدين وقتلهم العامة فى كل محل. وقتل السيد ابو الربيع بن اخى المنصور وكان المأمون قد تركه واليا بقرطبة، واستبد الامير أبو زكريا بافريقية وخلع الطاعة سنة 627.

وهنا يتبين لنا كذلك مقدار ما ساد البلاد، المغرب والاندلس، من الفوضى والثورات مما اضعف نفوذ الموحدين وقوى سلطان اعدائهم، وقد كان بنو هود مهادنين للموحدين لينصرفوا الى مواجهة هجوم الروم، ولكن بنى هود نشطوا لمحاربة امراء الموحدين والاستيلاء على ما فى ايديهم من بلاد.

---

(1) صفحة 233 وما بعدها من الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون.

ويقول لسان (1) الدين بن الخطيب انه لما انصرف الامير المأمون ادريس بن يعقوب فى سنة 626 من الاندلس الى مراكش خلا الجو للامير ابى عبد الله بن هود بعد وقائع كانت بينهما، وانتهز النصارى الفرصة فعظمت الفتنة، وجلت المحنة.

وتولى الخليفة يحيى بن الناصر الملقب بالمعتصم الى ان توفى سنة 633، فخلفه عبد الواحد بن المأمون ادريس بن يعقوب الملقب بالرشيد. وكانت خلافته الى سنة 640(1242م) اى الى ما بعد سقوط بلنسية (2) فى يد الروم.

وكان قد ولى امر بلنسية من قبل الموحدين بعد ابى الحجاج يوسف بن مردنيش السيد ابو عبد الله بن حفص بن عبد المؤمن، وبعده ابنه السيد ابو زيد.

نفهم هذا النسب لهذين الواليين من قبل الموحدين، من رواية ازهار (3) الرياض فان المقرى عندما يترجم ابن الابار يقول: «وكتب عن السيد ابى عبدالله بن ابى حفص بن عبد المؤمن ببلنسية، ثم

(1) الصفحات 247 .. 250 من الجزء الاول من الاحاطة (2) نكتفى هنا بذكر هؤلاء الخلفاء الى سقوط بلنسية لعلاقتهم بموضوع البحث.
(3) صفحة 204 ـ 206 من الجزء الثالث.

عن ابنه السيد ابى زيد». ونفهمه كذلك من رواية دائرة المعارف الاسلامية، فقد جاء[1] فيها انه كان «كاتبا لوالى بلنسية ابى عبد الله محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن بن على، ثم لابنه ابى زيد بعده. وهذا النسب هو ما ذهب اليه [2] دوزى ايضا بقوله: وتحت حكم الموحدين استمرت بلنسية تحكم كما كانت من قبل، يحكمها امراء من المغرب اولهم السيد ابو زيد عبد الرحمن ابن السيد عبد الله بن ابى حفص بن عبد المؤمن امير المسلمين. ولكن رواية كتاب الاحاطة [3] تفيد نسبا غير هذا. فابن الخطيب حين يترجم المأمون ادريس بن يعقوب يقول عنه: انه لما كان واليا فى الاندلس على اشبيلية هاجم المتوكل بن هود موسية فاستصرخ به اخوه[4] السيد ابو زيد فى سنة 625 فتحرك بجيشه الى غرناطة واحتلها فى رمضان من العام نفسه، وأنفذ منها كتابا الى اخيه يقوى بصيرته، ويعلمه بنفوذه اليه. فهذه

---

(1) تحت اسم ابن الابار (2) صفحة 334 من الجزء الثانى من كتاب: *Mohammedan Dynasties* (3) صفحة 247 ـ 250 من الجزء الاول.
(4) فى صفحة 252 من الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ما يفيد ان السيد أبا زيد هذا كان صاحب بلنسية وشرق الاندلس فى سنة 624هـ.

العبارة صريحة فى ان السيد ابا زيد هو ابن يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن لانه أخو السيد ادريس بن يعقوب.

على ان ابن الخطيب يذكر نسب السيد أبى زيد صراحة فى كتابه «اعمال الاعلام [1] فيمن بويع قبل الاحتلام من أعلام الاسلام» فهو يقول: انه السيد ابوزيدعبد الرحمن بن يعقوب. وليس لدينا من الادلة التاريخية ما يرجح احد النسبين.

ومما ذكرفى تاريخ ابن خلدون عن ابن الابار «وفى نفح الطيب» نفهم ان بلنسية تولاها السيد ابوعبد الله بن ابى حفص ابن عبد المؤمن، ثم خلفه ابنه السيد ابو زيد من قبل الموحدين. فاذا صح هذا كانت تولية السيد ابى عبد الله امارة بلنسية بعد موت الرئيس ابى الحجاج يوسف بن مردنيش[2] سنة 582 هـ.

وعلى اية حال، فان السيد ابا زيد الموحدى قد ضعف شأنه عند ما خمدت ريح بنى عبد المؤمن بالاندلس، وبخروج ابن هود عليهم، وبثورة ابن الاحمر، وبهجوم ملك برشلونة».

---

(1) صفحة 313.

(2) نجد تاريخ الوفاة هذا فى صفحة 312 من كتاب (اعمال الاعلام) لابن الخطيب.

«فلما ازمع السيد ابو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الخروج عن بلنسية ، والاعتصام ببعض معاقلها ليكون اقدر على ضبط امره ، وامتنعت عليه ، والجأه الاضطرار الى اللحاق بصاحب أرغون بادر الرئيس ابو جميل بلنسية من مستقره يومئذ بمدينة ابده ، فدخلها يوم الاثنين السادس والعشرين لصفر سنة 626 ، وسكن القصر ، واخذ البيعة لنفسه اول ربيع الاول من السنة داعيا للعباسى ببغداد ، ثم دخلت دانية فى بيعته . . . . . واشتهر جهاده الى ان كانت عليه الوقيعة بآنيشة من ظاهر بلنسية . هلك فيها من المسلمين ما لا يحصيه الا الله ، وتلب عليهم عدو الشرق ، ويئسوا من نصرة اهل الاندلس واهل المغرب ، فتعلقوا ببيعة الامير ابى زكريا بتونس ، واستصرخوه ، واطمعوه بفتح [1] الشرق

اما الرئيس ابو جميل هذا فهو زيان بن ابى الحملات مدافع بن الرئيس ابى الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش . فكان جده هو ابو الحجاج يوسف والى بلنسية من قبل . أما

---

(1) صفحة 313 من كتاب اعمال الاعلام .

ابوه مدافع، فقد استشهد شابا.

ومما سبق نستطيع ان نستنبط ان دولة الموحدين بشرق الاندلس قد دالت، وان الامل فى نصرتها ملوك الاندلس قد صار مفقودا ، ولهذا اتجه ابو جميل زيان لتبعيته الى خليفة بغداد من العباسيين. والحقيقة هى ان امراء الموحدين قد صاروا من الضعف فى المغرب والاندلس بحالة لا تسمح لهم بمد يد المعونة الى المستصرخين من أمراء المسلمين بالاندلس ضد الروم. وكانت دولة بنى حفص فى تونس قد نهضت وغطى سلطانها سلطان دولة الموحدين ، فلا عجب حينئذ ان نجد امراء الاندلس يتجهون الى بنى حفص (1) طلبا للنجدة والمعونة ضد الغزاة من الروم . وهذا ما فعله الرئيس ابو جميل زيان والى بلنسية عند ما هاجمه ملك برشلونه ، كما سنوضح ذلك فى ترجمة ابن الابار نفسه .

---

(1) يقول المقرى فى نفح الطيب : «ولم يزل اهل الاندلس بعد ظهور النصارى عليهم يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لاخذ الثار، بالنظم والنثار فلم ينفعهم ذلك. فمن القصائد الموجة فى ذلك، قول بعضهم لما اخذت بلنسية يخاطب صاحب افريقية ابا زكريا عبد الواحد بن ابى حفص:

نادتك اندلس فلب ندائها واجعل طواغيت الصليب فداءها